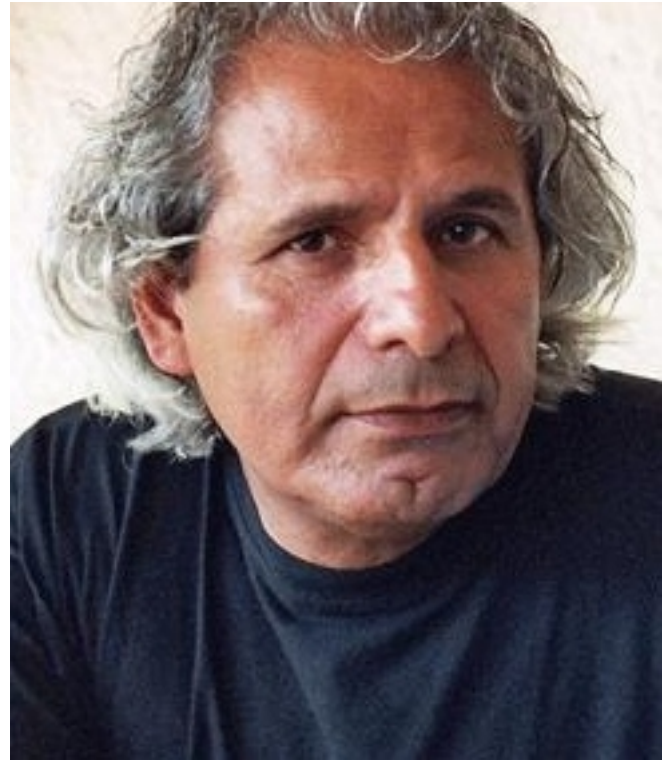


حاوره حسين المسكاف:



لم يجلس على مقاعد الدراسة طويلاً، الحياة وقساوتها وقضت عائقاً أمام رغبة المتعلم العارمة التي لم تفارقه أبداً. البيت الذي احتواه واحتمى بجدرانه كان غرفة واحدة تضيق بأفراد عائلة تضم عشر أرواح بشرية محشورة بين أربعة جدران، لذا فمن اللامعقول أن نتصور تلك الجدران وهي تحتضن مكتبة أو بعض كتب، كان الكتاب حلماً لذيذاً ظل يكحل عيون المصبي لفترة طويلة. كبر المصبي دون أن ينسى طفولته التي أينعت بين القسوة والخراب، صار شاباً يصطاد الكلمات ويكتمها سراً قبل أن تطلق موسيقى المعنى، كان كل شيء مؤجلاً، وكأنه على يقين بأن الحاضر الذي كان يعيشه ليس حاضره. يشتغل محارباً للجوع والعوز ويختزن ذهنه كل الكلمات المضاربة بمعناها أوتار الروح، تلك الكلمات التي كانت تتفاضل من أفواه المثقفين كأسمالك شبكة الصياد. إنه الشاعر والمسرحي العراقي صلاح الذي أدرج العالم الماضي ضمن انطولوجيا الشعر الفرنسي، العراقي الذي توصل بجهود ثقافية ومعرفية شخصية بحثة، إلى أن يكون اسماً مهماً ضمن شعراء فرنسا بلد الثقافة والآداب والمفنون بامتياز.

-أعترف أن الشاعر والفضان المسرحي صلاح

شخصية مُستفزة، يذكرني بالكتاب المنتمين إلى جيل الستينيات من أبناء المغرب العربي، الكتاب الذين صاروا نجومًا في سماء الأدب والثقافة الفرنسية قبل أن تعرفهم بلدانهم، مثل المكاتب المسرحي الجزائري "كاتب ياسين" والمكاتب والشاعر "محمد ديب" على سبيل المثال. حاولت أن أستبين ما تكنه روحه، ورحلت أصف له بغداد وشوارعها وبعض الأجواء الخاصة التي خبرها من أهتم بالأدب والحركة الثقافية العراقية حتى بدأ بالحديث وكأنه يتحدث عن حلم أختلط فيه الجمال بالمقبح و صار كالكابوس المؤلف ولكن بلذة خاصة:

حين خرجت من السجن السياسي عام 1973، بعد أن عُدتُ وحُكمتُ عليَّ بالطرد من مكان عملي ومورد رزقي الوحيد. وبعد فترةٍ من التشرد والجوع والعمل هنا وهناك، استطعت أن أغادر العراق حيث المكان الآخر وليس البديل، هناك وجدت نفسي كبذاء شديداً من بقايا الأشياء، فأنا الحارس الذي كان يقدم قذح شاي الصباح إلى الموظف، أنا بائع قذاني الكحول الفارغة أمام مدخل مستشفى الجمهورية. مشتري خبز "أبو العانة.. الناعس في" خرابة الطنطل "في حي" أبو سيفين ".. أنا الذي يلتقط الكلمات المساقطة سهواً وتلك التي تسيل على دشايدش أصدقائي المساكين.. أنا الذي يكتب في دفتره كلمات مقوسة الظهور، محدبة المعاني. كل ما يترك هو ملكي، ما يسقط عمداً من مسودات الشعراء، ومن أفواههم. لقد ذهبت بعيداً، ويبدو أن من الصعوبة الإلحاق بماضي البعيد... فظهرت كتاباتي ناطقة بما لم يتمكن الناس البسطاء الميؤس بهم، ما أهمله عمداً الأدب البرجوازي العراقي آنذاك، أن البساطة برؤية الأشياء، ببساطة التمعن بأمور الحياة، تعمق مسؤولية المرء ورؤيته بوصف ما يدور من حوله، وبالضرورة تهذب إدراكه. هذا ما وجدتهني عليه وهذا بالضبط ما أملكه من زاد ثقافي، فأنا بسيط جداً، وقريب المشبه بالادتي الأمية.

-هكذا يضع الحمداني

سطوره أمامنا كسيرة ذاتية قريبة التشابه بواقع العراقي البسيط الذي خبر منغصات الحياة وحلاوة التغزل بهومومه اليومية مستخدماً روحه المحبة لبيئته وأبناء جلدته، ولكن، أعتزف أنني مهتم في هذه اللحظة أن أقف مع الحمداني على تلك المشاعر التي تذوقها وهو يتسلم ديوانه الأول مطبوعاً باللغة الفرنسية، كان ذلك عام 1979، وكان تحت عنوان "حناجر قروية" وحين سألته، راح يتحدث بسلاسة محببة ولكن صورته لم تكن خالية من المومج:

لم أتصور يوماً بأنني سأنشر مقالة بسيطة أو قصيدة، بل حتى كلمة لها علاقة بالأدب، فكيف وقد صدر لي كتاب باللغة الفرنسية؟ صراحة الأمر، منذ صدور كتابي الأول وحتى الأخير، تلازمني فكرة الكتابة كي أخذ حصتي بالوجود، حتى بالكلام وتلمس متعة نشوة الاحتجاج والمتمرد، أريد أن يسمع العالم صوتي. لذلك تجدني بعيداً عن التأويلات، وما عملته، يبقى متواضعاً، مقارنة بما أملكه من رغبة بالكتابة.. ذاتياً، أن ما قمت به، فعلة عظيمة الشأن بالنسبة لرجل لم تحتضنه مقاعد الجامعات والمكاتب، ولما يوجد أي شيء في محيط طفولته يجعله يفكر بالكتابة، ناهيك عن السفر. وحين وجدت نفسي مرمياً في صحب هذا المجتمع المتنور والمتعلم، مجتمع مثل المجتمع الفرنسي بثقافته التي غرغ ولما يزال يغرف من ينابيعها كبار المثقفين والمبدعين العرب. كنت أملك طموحاً بتغيير العالم، فلا بد من إيجاد طريقة غير تلك المتعارف عليها، شيء يكون خارج (المؤسسة). شجعني على ذلك ما كنت أطلع عليه في الصحافة العربية من كتابات، وما كان يقع بين يدي من مقالات أدبية وشعرية عربية هنا في باريس، كنت أراها نسخة طبق الأصل مما يبدهه الفرنسيون في مجالي الفن والأدب. فكرت حينذاك بتأسيس مجلة تعني بالأدب - الشعر تحديداً - وتصدر باللغة العربية واللغة الفرنسية. وبالفعل صدرت المجلة التي حملت عنوان "طباشير" وساعدني على تأسيسها أحد الشعراء الفرنسيين، ولكنها سرعان ما توقفت لأسباب مادية. بعدها أنشأت دار نشر مع شاعر فرنسي أسمها "السلام البيضاء" أصدر كتاباً واحداً ثم توقفت لنفس الأسباب. كانت طموحاتنا أكبر من ماديات واقعا، كنا نعرف هذا، ولكننا لم نعرف الاستسلام لسخافات الواقع المر.

-عند هذه الكلمة "الواقع المر" قاطعته لأتلمس عمق العلاقة بين الثقافة والمنفى داخله، وسألته: أنت مقيم في فرنسا منذ عام 1975، ولكن أولى مطبوعاتك جاءت بعد هذا التاريخ بسنوات، فهل يعني هذا أن المنفى وطقوسه وأوجاعه هو المحرك الأساس لنتاجك الإبداعي؟

النشر في بلد مثل فرنسا ليس شيئاً هيناً، أبداً، خصوصاً حينما تحاول أن تنشر قصائد مكتوبة بلغة المبلد الذي تعيش فيه، أي بلغة غير لغتك الأم. تصور لو أن "بودلير" مثلاً كتب قصائده الأولى باللغة العربية، أو "مايكوفسكي" كتب قصائده باللغة الإنكليزية؟ لقد صدرت باكورتى الشعرية الأولى بالفرنسية، وكانت مقابل مبلغ مادي استلفته من جدة زوجتي الفرنسية كي أعطي تكاليف الطبع والنشر. علماً أن شعراء فرنسيين معروفين كانوا قد فعلوا نفس فعلتي هذه، وأذكر الشاعر "كوكتو" الذي دفع هو الآخر ثمن مجموعته الأولى. أما اليوم فأنا لا أنشر في فرنسا دون مقابل مادي، أقصد حقوقي ككاتب. ولكن، إذا ما نظرنا إلى النشر في الدول العربية، فالأمر يختلف، فلقد قمت بدفع أثمان جميع كتبي المنشورة بالعربية، ولكني اليوم أهملت هذه الفكرة تماماً، فلا يهمني كثيراً النشر باللغة العربية، لما حين يأخذ الحنين من روعي مأخذاً. من كل هذا، أريد أن أقول لك، ليس المنفى وحده المحرك لنتائج الفكر والإبداع رغم أهميته. أكتب من أجل أخذ حصتي بالتعبير عن الحياة ومفرداتها كما الآخرين. منذ صدور كتابي الثالث في فرنسا وأنا أضع عمداً اسمي المصريح وصورتي خلف الكتاب وأكتب تحتها بأني مناهضاً للدكتاتور، وأقف ضد حروبه. تلاحظ، أن هذه الطريقة بالتعامل مع الحدث اليومي، ليست فقط زائدة، وإنما لم أجدها عند ذلك الأديب الشاعر، الذي يعيش في أوروبا بعيداً عن بطش البعثيين. وهذا ما جعلني بعزلة تامة عن الذين يتصدرون النشر وأدواته، ومنهم من رفض أن ينشر لي على أساس أنني أتطرق للدكتاتورية والحرب والمنفى، وهذا يعني أن هنالك سماسرة أدب وتجار جشعين، وأن المقابر الجماعية والحروب التي راح ضحيتها الملايين ذاهباً عن ضرب الأمنين بالغازات المسامة هي أشياء طبيعية في عقولهم، وأن المنفى موضوع تافه وعادي في حياتهم. ما أقصده، كان همي أن يصل نتاجي الأدبي لأعدائي وأصدقائي بنفس القوة، هذا جزء مهم من النضال الفكري بالنسبة لي، ضد الفاشية العراقية والعربية، في زمن كان شعراء معروفين يعملون في سفارات النظام الفاشي وقنصلياته في أوروبا، ومنهم من اعتاد الذهاب إلى مرابذ دكتاتورية المبعث، أو كان يسامرهم في مطاعم أوروبا، واليوم ومن دون حياء يقدمون أنفسهم مناضلين.

المعروف عن صلاح الحمداني في الأوساط الفنية والأدبية بأنه شاعر أكثر من كونه فنان مسرحي، ولكن الحقيقة تقول بأن الحمداني اشتغل كثيراً في مجال المسرح وقام بتجسيد عدة شخصيات، أذكر منها، أنكيديو في ملحمة جلجامش، أحمد العربي المهاجر، وكذلك شخصية وليد الفلسطيني في مسرحية "كفر شما" ترى أي من تلك الشخصيات قريبة الشبه بصلاح الحمداني؟

المرّة الأولى التي أقف فيها على خشبة المسرح كانت على المسرح الوطني ببغداد كعازف "صنج". كنت صبياً أرتدي الدشداشة المقلمة، وكنت برفقة مجموعة من عازفي الطبول البغدادية "فرق المناسبات والأفراح"، وكانت تسمى بفرقة "علي خرابة" وهو أحد الأكراد الفيليين من محلة "قنبر علي" الذي طلب منه المسرح الوطني حينها أن يقدم فصلاً شعبياً ترفيهياً، وأذكر أن الجمهور استقبلنا حينها بالضحك والاستهزاء